

الباب الأول

القدس في عهودها الغابرة

القدس اليبوسية — القدس في زمن الفراعنة — القدس
وبنو إسرائيل — القدس وآشور — القدس وبابل — القدس
في عهد الفرس — القدس في عهد اليونان — القدس في عهد
الرومان — القدس البيزنطية

obeykandi.com

القدس اليبوسية

(٣٠٠٠ ق. م)

اليبوسيون بناء القدس الأولون . وكانت على عهدهم تدعى : (ييوس) .
لهم بطن من بطون العرب الأوائل . نشأوا في صميم الجزيرة العربية ، وترعرعوا
في أرجائها . ثم نزعوا عنها مع من نزع من القبائل الكنعانية . فاستوطنوا هذه
الديار . وأغلب الظن أن ذلك حدث حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد .

من ملوكهم : (ملكيصادق) . وهو أول من اختطها وبنائها (١) . وكان
قبل ذلك يسكن وقومه في الكهوف . عرف بالنقوى ، فاعشى امرأة ، ولا
أراق دماً ، وما أكل سوى الخبز ، وما شرب سوى الحمر . وكان محباً للسلام .
حتى أطلق عليه : (ملك السلام) . ومن هنا جاء اسم المدينة : (سالم)
و (شالم) (٢) .

ومن ملوكهم : (سالم اليبوسى) . فقد زاد هذا في بنائها . وشيد على الأكمة
الجنوبية المعروفة في يومنا هذا بجبل صهيون برجاً بقصد الدفاع عن المدينة .
وراحت هذه بعدئذ تعرف باسمها الكنعانى : (أورو - سالم) أى مدينة السلام .
كان الكنعانيون في بادئ الأمر رعاة . ولما استقر بهم المقام في هذه
البقعة من الأرض سميت باسمهم (كنعان) . فقد كانوا يوثق متحدين . وكانوا
من المنعة والقوة بحيث تمكنوا من صد المصريين ، عندما أراد هؤلاء أن يجتاحوا

(١) السير السليم في يافا والرملة وأورشليم : للآباء الفرنسيسكان ص ١٤

(٢) سفر التكوين . الإصحاح ١٤ العدد ١٨

١١
بلادهم . وكذلك قل عن العبرانيين ؛ فقد صدوهم وقاوموهم زمناً طويلاً ، ذلك
لأنهم كانوا متحدين .

وكانت مدينتهم (ييوس) ذات أهمية من الناحية التجارية ، واقعة على
طريقين من أهم طرق التجارة : واحدة تربط البحر بالصحراء ، والأخرى تربط
حبرون^(١) ببيت أيل^(٢) . وفي بيت أيل كانت الطريق تسير في اتجاهين :
واحد نحو شكيم^(٣) . والآخر إلى أريحا ووادي الأردن .

وكذلك قل عنها من الناحية الحربية . واقعة على تلال مرتفعة ومحاطة بسور
منيع . وكان للملكها جيش ، وكان بينها وبين الملوك المجاورين حلف متين .
ولما تفرقت كلمة اليبوسيين ، استغل العبرانيون الفرصة . فراحوا يغزونها
وكادوا يقتحمون مدينتهم . ولم يكن فيها سوى حامية صغيرة . عندئذ استمد
حاكمها (عبد حيا) العون من فرعون مصر تحوتمس الأول (١٥٥٠ ق. م)
ليحميه من العبرانيين . ذلك لأن هؤلاء كانوا كلما احتلوا مدينة أعملوا السيف
والنار فيها وفي سكانها . وأما المصريون فكانوا يكتبون بالجزية ، فلا يتعرضون
لسكان البلاد ومعتقداتهم ولا يصيبونهم بسوء . وركض الفراعنة لنصرتهم كما
سنذكر ذلك في الفصل التالي .

يعتقد المؤرخون أن معظم سكان القرى في قطاع القدس يرجعون إلى أصل
كنعاني ، وأن لغتهم الأصلية كانت كنعانية . وانضمت إليها - عند الفتح
البابلي - اللغة البابلية . وظلت هذه اللغة هي الرسمية حتى الفتح الفارسي .
كانوا يعبدون الأصنام ، وصنمهم الأكبر : (بعل) ومعناه الرب .

القدس في زمن الفراعنة

(١٤٧٩ ق. م)

قلنا في الفصل السابق إن أحد رجال السلطة في أورو- سالم : (عبد حيا) أرسل إلى فرعون مصر تحوتمس الأول (١٥٥٠ ق. م) رسالة أبدى فيها خضوعه ، وطلب أن يحميه من غارات العبرانيين . هذا ما حدثتنا به ألواح تل العمارنة . إنا لا نعلم شيئاً عما فعله هنا تحوتمس الأول . ولكن التاريخ حدثنا أن ييوسا خضعت لفراعنة مصر خضوعاً تاماً في عهد تحوتمس الثالث (١٤٧٩ ق. م) وأن هذا أقام عليها حاكماً من أبناء مصر . ومن الفراعنة التي كانت لهم جولات فيها أمين حوتب الثالث (١٤١٣ ق. م) . وإخناتون (١٣٧٥ ق. م) وكانت القدس على عهده من ممتلكات مصر الهامة . وتوت عنخ آمون (١٣٥١ ق. م) . وسيتي الأول (١٣١٤ ق. م) . ورعمسيس الثاني (١٢٩٢ ق. م) . وشيشاق (٩٧٠ ق. م) . ونيمخو (٦١٠ ق. م) . كان المصريون تارة يطلقون عليها اسمها اليبوسى : (يابيشى) ، وطوراً اسمها الكنعانى : (أورو- سالم) . وقد اتخذوها مخفراً أمامياً لقربها من البادية . فكان لهم فيها قشلاق كبير ، وجند كثيرون ، وموظفون ، وجباة . وكان قصدهم من احتلالها حماية طريق التجارة . وكانت على عهدهم مليئة بالغابات الكثيفة . ولا سيما ذلك الجزء من البلاد الممتد من الجبال إلى البحر . وكان المصريون يأخذون منها الحطب والأخشاب اللازمة لصناعاتهم . ولم يحاول المصريون تمصيرها ، بل اكتفوا بتحصيل الجزية من سكانها^(١) .

(١) (تاريخ سورية) للمطران يوسف الدبس ص ٢٦٢ .

وما كانوا ليكثرثوا لعادات القوم ودياناتهم . لا ، ولا لشؤونهم الاجتماعية الأخرى . وما كانوا ليصدوا أى فريق من السكان عن التحالف مع الفريق الآخر . بل كانوا ينجدونهم فى حروبهم مع أعدائهم . وكثيراً ما تمرد الكنعانيون ، وثاروا على المصريين ، وأبوا أن يدفعوا لهم الجزية . ويظهر أن العبرانيين استغلوا الموقف بعد ذلك ؛ فجاءوا يحاربونهم ، وتمكنوا من احتلال ييوس فى عهد داود (١٠٤٩ ق . م) . كما سندكر ذلك فى الفصل التالى .

القدس وبنو إسرائيل

(١٠٤٩ ق . م .)

خرج بنو إسرائيل من مصر فى عهد فرعونها رعمسيس الثانى (١٢٥٠ ق . م) . فاجتازوا بقيادة زعيمهم موسى صحراء سيناء . وقد تاهوا فيها أربعين عاماً . حاولوا فى بادئ الأمر دخول هذه البلاد التى أسموها (أرض الميعاد) من ناحيتها الجنوبية ؛ فوجدوا فيها قوماً جبارين . ولما بدلوا طريقهم ، ووصلوا إلى جبال موآب ، شرق الأردن ، توفى موسى . فتولى قيادتهم يشوع بن نون . فعبر هذا بهم الأردن (١١٨٩ ق . م) واحتل أريحا . فدهكها دكاً . وقتل من وجده فيها ، لا فرق فى ذلك بين رجل وامرأة ، شيخ أو طفل^(١) .

وكذلك فعل فى (عاى)^(٢) و (الجلجال)^(٣) و (شيلوح)^(٤) والمدن

(١) سفر يشوع : الإصحاح ٦ عدد ٢١ - ٢٥

(٢) إنها غربية (الحيان) الواقعة على مسافة ميلين إلى الجنوب الشرقى من (بيتين) من أعمال رام الله .

(٣) إنها (تليلة الجلبجلة) الواقعة على بعد ميل ونصف من أريحا إلى الشرق . وقيل إنها

كانت فى الموضع المعروف فى يومنا هذا بالخان الأحمر بين أريحا والقدس .

(٤) على مسافة ثلاثة أميال من اللبن إلى الجنوب ، وبميل واحد من ترصعيا إلى الشمال الغربى .

الكنعانية الأخرى التي احتلها في طريقه إلى ييوس . ولكنه لم يتمكن من احتلال ييوس نفسها . إذ كانت هذه محصنة تحصيناً تاماً . وقاومه اليبوسيون .

وحاول بنو إسرائيل : بعد موت يشوع ، احتلال ييوس . وزحفوا إليها بقيادة (يهوذا) الذي تزعمهم بعد ذلك ، فاحتلوها ، وأشعلوا النار فيها . وقتلوا عشرة آلاف رجل من سكانها . إلا أنهم عادوا ، فأخلوها تحت ضغط اليبوسيين . وظل هؤلاء يهزأون بحملات العبرانيين عدة قرون .

ولما مسح داود ملكاً على بني إسرائيل (١٠٤٩ ق. م .) وكان يومئذ يقيم في (حبرون) زحف نحو ييوس بجيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل ، يقوده ابن أخته (يوآب) . وقاومه اليبوسيون في بادئ الأمر مقاومة عنيفة ، وصدوه عنها . إلا أنه عند ما أعاد الكرة : وتمكن من احتلال (تل أوغل) الكائن في جنوبها ، والمطل على قرية (سلوان) (١) ، أصبحت (عين روجل) (٢) بيده . وكانت هذه هي النبع الوحيد الذي يستقى اليبوسيون منه الماء . عندئذ سقطت ييوس بطبيعة الحال (١٠٤٩ ق. م .) .

كانت ييوس ، قبل احتلالها ، ذات حضارة . وكان فيها منازل منقنة ، حوت الكثير من أسباب الراحة والرفاهية . وكان فيها حكومة وصناعة وتجارة وديانة . فاقتبس العبرانيون (٣) هذه الحضارة من ييوس ، ومن المدن الكنعانية الأخرى التي احتلوها . فغادروا الخيام . وسكنوا في بيوت بنوها كبيوت الكنعانيين . وخلعوا عنهم الجلود التي كانوا يلبسونها ، ولبسوا بدلاً منها ثياباً منسوجة بالصوف كثياب الكنعانيين .

(١) (سلوان) القرية الملاصقة لسور القدس من الجنوب .

(٢) هي عين الماء المعروفة اليوم بعين أم الدرج .

(٣) (تاريخ المصور القديمة) لبرست .

ولما احتل داود يبوس ، وكانت كما قدمنا : أحبها ، فاتخذها عاصمة ملكه . ولكنه ترك اسمها الكنعاني (أورو - سالم) وأسمائها (مدينة داود) . وقد أحصى سكانها ، فثار عليه قومه . ثاروا بتحريض من ولده أبشالوم . فهرب منها . ثم رجع إليها بعد موت ولده .

وتمكن داود بمساعدة نجله الأكبر سليمان من إحباط مؤامرة ثانية قام بها ابنه الرابع أدونيا . ومن الأسباب التي دعت قومه للثورة أنه أحصاهم . فاعتبروه مسيئاً للطاعون الذي أصابهم . فقالوا له : الله الذي خلقنا يعرفنا ، فلماذا أحصيتنا ؟

ويظهر أن داود ندم على عمله . إذ راح الشعب ينفض من حوله بعد عملية الإحصاء هذه . ولكي يرضى شعبه ، أبدى رغبته في بناء هيكل ليكفر عن ذنبه . فابتاع من إرنان اليبوسي أرضه الواقعة على تل موريا (١) وكانت قبل ذلك بيدراً . ابتاعها بخمسين شاقلاً من الفضة . وشرع في بناء الهيكل . ولكنه مات (١٠١٥ ق. م) قبل أن تتحقق أمنيته .

ولما مات داود مسح ابنه سليمان ملكاً . وقيل أن مسحه جرى على مقربة من ماملا . ولقد اتسعت القدس في عهده وازدهرت . فبنى فيها الدور والقصور . وأتم عمل أبيه ، فبنى الهيكل (١٠١٧ ق. م) . واتسع ملكه من الفرات إلى تخوم مصر . وعقد معاهدات مع جيرانه . ورأى أن يكون على وفاق مع فرعون مصر ، ليأمن شره . فصاهره وتزوج ابنته . ومن آثاره البناء الكائن تحت المسجد الأقصى ، وبرك سليمان الواقعة إلى الجنوب من بيت لحم . وفي أواخر حكمه مال إلى عبادة الأوثان . وبنى بيتاً لها على الجبل الكائن أمام الهيكل من الشرق . ويعزو بنو إسرائيل خراب ملكه بعد موته ، إلى عمله هذا .

بعد موت سليمان (٩٧٥ ق . م) تولى الملك ابنه رحبعام^(١) . واقتتل هذا مع أخيه يربعام^(٢) فانقسمت المملكة إلى شطرين : (يهوذا) وعاصمتها أورشليم . و (إسرائيل) وعاصمتها (شكيم)^(٣) . وراح كل منهما يفرض الضرائب على شعبه ليتغلب على خصمه . ومنع يربعام قومه من زيارة أورشليم .

استغل شيشاق فرعون مصر هذه الفرصة ، فزحف على أورشليم ، واحتلها (٩٧٠ ق . م) . وبعد أن سلب خزائنها ، رجع إلى مصر . وقصارى القول أن أيام رحبعام كانت كلها حروباً : حرب خارجية مع مصر ، وأخرى داخلية مع أخيه يربعام . وظلت أورشليم بعد ذلك أربعة قرون ، يحكمها اليهود . فلم تسلم أبداً ، خلال تلك القرون ، من ثورة أو مؤامرة أو شغب أو قتال .

ومن ملوكها : أبيا بن رحبعام (٩٥٨ ق . م) . آسا (٩٥٥) . يهوشافاط (٩١٤) . يهورام (٨٩٢) . آحازيا (٨٨٥) . يهوشع (٨٦٠) . أمصيا (٨٣٩) . عزيا (٧٨٠) . يوثام (٧٥٨) . آحاز (٧٤٢) . ثم جاء حزقيا (٧٢٦ ق . م) وعلى عهده غزا الآشوريون أورشليم . وقد حصنها ، وجر الماء إليها . ومن بعده جاء ولده منسى (٦٩٨) . آمون (٦٤٣) . يوشيا (٦٤١) وقد قتل هذا من لدن نيكو فرعون مصر .

وكذلك قل عن ولده يواحاز (٦١٠) الذى كتفه نيكو ، وغرمه ، وأقام مكانه أخاه يهوياقيم ملكاً . ثم ولده يهوياكين (٥٩٩) . وعلى عهده غزا البابليون أورشليم . فافتتحها نبوخذ نصر . وسبي جميع من فيها وأرسلهم إلى بابل .

(١) ابن سليمان من امراته السونية .

(٢) ابن سليمان من امراته المصرية .

(٣) نابلس .

حتى الملك نفسه ، فقد أرسله إلى بابل .

أقام نبوخذ نصر على كرسي الملك عمه صدقيا (٥٩٠) . فخضع له هذا في يادى الأمر . ثم حاول أن يتملص من سلطته ، فحصن السور ، وبني الأبراج . إلا أنه فشل . فأسره نبوخذ نصر . وبعد أن فقأ بصره ، أرسله وقومه إلى بابل . وهكذا انقرضت مملكة يهوذا (٥٨٦ ق. م) .

ولما تبوأ كورش عرش الفرس (٥٣٨ ق. م) أذن لمن شاء منهم أن يعود إلى أورشليم . وسمح لهم بتجديد الهيكل ، وبناء المدينة . ولكنه عاد فاسترد أمره ، تحت ضغط العمونيين والأشوديين والعرب ، ومنعهم من تجديد بناء السور . إذ هدد هؤلاء الملك بالعصيان وقطع العلاقات الودية مع فارس ، إذا هو لم يمثل لنصائحهم ، ولم يمنع اليهود عن عملهم ، واصفين أورشليم بالعاصية ، قائلين إن اليهود إذا حصنوا المدينة وسكنوها لا يؤدون جزية ولا خراجاً . ولم يتمكن اليهود من بناء السور إلا في عهد دارا (٤٤٥ ق. م) . وما كان ذلك ليتم لولا حراب الفرس .

ومع ذلك فلم يتمكن اليهود بعد ذلك التاريخ من استعادة كيانهم السياسى . بل راحوا يعيشون كطائفة دينية يرأسها كاهن . وظلوا كذلك زمناً طويلاً . إلى أن ظهر المكابيون ، فاستولوا على أورشليم (١٦٧ ق. م) . وقد ظهر منهم خمسة رؤساء هم : متاتياس (١٦٧ ق. م) . يهوذا بن متاتياس (١٦٦) . يوناتان أخو يهوذا (١٦٠) . سيمون أخو يهوذا (١٤٣) . جون هركانس الأول (١٣٤) . وسبعة ملوك هم : أرسطوبولس الأول بن هركانس الأول (١٠٥ ق. م) . الكسندر أخو أرسطوبولس (١٠٤) . الكسندرا امرأته (٧٧) . هركانس الثانى بن الكسندر (٦٩) . أرسطوبولس الثانى بن الكسندر (٦٧) . هركانس الثانى للمرة الثانية (٦٢) . أنتيكانس بن أرسطوبولس الثانى (٣٧ ق. م) .

ومن الحوادث الجديرة بالذكر في عهد المكابيين أن النقد المعروف بالشاقل
 خرب في أيام سيمون . وأن القلعة الواقعة في الزاوية الشمالية الغربية من منطقة
 الهيكل بنيت في عهد جون هركانس الأول ، وكانت يومئذ تدعى بارس (١) .
 وكان عهد المكابيين مليئاً بالمشاغبات الداخلية . حتى إن أرسطوبولس
 الأول بن هركانس سجن أمه ، وأماتها جوعاً (٢) . ثم قتل أخاه أنتيكانس خشية
 أن ينازعه الملك . وذاقت أورشليم على عهد أخيه الكسندر مرارة الفوضى
 والحروب الأهلية . وتنازع الأخوان أرسطوبولس الثاني وهركانس الثاني ، فراح
 كل منهما ينشد مساعدة دولة من الدول المجاورة لها . أما هركانوس فراح
 يستنجد ملك العرب أريطاس (الحارث) . وأما أرسطوبولس فقد استمد القوة
 من روما . فكثر الأحزاب ، وساد الفساد بين اليهود . وراح جم غفير منهم
 يطلبون من بومبي إمبراطور الرومان أن يريحهم من شر الاثنين ، بل من جشع
 الحزبين المتنافسين : القريسيين والصدوقيين . فاهتبل بومبي هذه الفرصة ؛
 وجاء ، ففرض على استقلالهم (٦٣ ق. م) . وبعمله هذا قضى على حرية
 الشعب اليهودي قضاء تاماً . وراح اليهود بعد ذلك يعيشون في ظل الشعوب
 والأمم الأخرى .

(١) هو البناء الذي وضعه هيرودس بعدئذ ، وأسماء (برج أنطونيا) . والمعتقد أنه كان يقوم
 في المكان الذي تقوم عليه (مدرسة الروضة) في يومنا هذا ، إلى الشمال الغربي من سور الحرم .
 (٢) "Jerusalem" by Lionel Cust p. 79 (٢)

القدس وآشور

(٧٣٠ ق. م)

غزا الآشوريون أورشليم بقيادة ملكهم شلمنصر (٧٣٠ ق. م) . فسبي هذا سكانها ، وظل يحاربهم حتى سنة (٧٢١ ق. م) . غير أنه لم يتمكن من تثبيت أقدامه فيها زمناً طويلاً ، فارتد عنها . وظلت هي والقسم الجنوبي من فلسطين راضخة لسلطان الفراعنة . ولم تدخل أورشليم في حكم الآشوريين إلا على عهد سنحريب . إذ أرسل إليها هذا قائده المشهور ربشاقى^(١) فحاصرها (٧١٣ ق. م) . وراح يدك أسوارها ، ويضيق الخناق على سكانها . وقد نصب مخيمه في موضع إلى الشرق من بركة ماملا . ولم يقعد بنو إسرائيل عن دفع الأذى عنهم . فاتبعوا نصيحة ملكهم حزقيا الذي أمر بتحسين السور . وحضر نفقاً طوله ١٧٠٠ قدم بين عين أم الدرج في سلوان وداخل المدينة . كما أسال الماء من بركة ماملا إلى بركة سميت باسمه فيما بعد (بركة حزقيا) . وهى التى نسميها اليوم (بركة حمام البطرك) في حارة النصارى . ولكن لا هذه المشروعات التى قام بها حزقيا ، ولا أسوار أورشليم ، حتى ولا الخطب التى ألقاها أشعيا النبي من أجل تحميس الجماهير وتحريضهم على القتال . . . كان كافياً لإنقاذ أورشليم من الآشوريين الذين جاءوا بجيش لجب ييغون احتلالها . لولا الطاعون الذى ألم بهم في ذلك الحين ، حتى كاد يقضى عليهم . فرجعوا إلى بلادهم .

(١) وفي رواية أخرى ربساكس .

ثم عادوا ، بعد حين ، فاحتلوها . واعتقلوا ملكها منسه . وأرسلوه إلى بابل مصفداً بالأغلال (٦٧٨ ق. م) . ولكنهم عادوا ، فأطلقوا سراحه . ورجع إلى أورشليم . فبنى سورها الثاني (٦٤٤ ق. م) . وبعد قليل دب الفساد في صفوف الآشوريين ، فضعفوا . وتمخلوا عن هذه البلاد إلى البابليين .

فاق الآشوريون البابليين والمصريين من حيث التنظيم الإداري . ولكنهم لم يعنوا بالشؤون الصناعية والتجارية . وكان جل اهتمامهم منصرفاً إلى سلب البلاد . فجمعوا ما فيها من ذهب وفضة . وكانت هذه المدينة على عهدهم تدعى : يورو - سالم ، أي مدينة الرب سالم . وفي بعض الآثار الآشورية ذكرت بهذا الاسم : أور - ما - لي - امو . وهذا متحدر عن اسمها باللغة الآرامية .

القدس وبابل

(٥٩٩ ق. م)

عندما تقلص ظل الآشوريين عن أورشليم ، راح البابليون من جهة ، والمصريون من الجهة الأخرى ، يتنازعون السيادة . وكان على سكان أورشليم ومملكة يهوذا أن يختاروا أحد الفريقين . وكان على رأس الحكم فيها يهوياقيم^(١) . فخضع هذا لنبوخذ نصر ، وسلمه المدينة (٥٩٩ ق. م) : وعاش عبداً له^(٢) .

(١) (النج القويم في التاريخ القديم) هارفرد بورتر أستاذ التاريخ في الكلية الإنجيلية .

(٢) سفر الملوك الثاني : ٢٤ - ١

طبع في بيروت سنة ١٨٨٤ م .

بعد ثلاث سنين ، عاد فتمرد عليه . فأقاله نبوخذ نصر ، وأقام مقامه ابنه يهوياكين (٥٩٧) . ثم عاد فأقال هذا أيضاً بعد ثلاثة أشهر ؛ فنفاه مع عدد من عظماء قومه إلى بابل ، وأقام مقامه صدقيا .

تعاون صدقيا بادئ ذي بدء مع البابليين . ثم عاد ؛ فانتقض عليهم . عندئذ ساق نبوخذ نصر عليه قائده نبوزردان^(١) . وجاء هو من ورائه فحاصر أورشليم (٥٨٧ ق. م) . وذات المدينة في هذا الحصار الأمرين : جوعاً ومرضاً . إلى أن اختار اليهود جانب الحرب . فثلموا السور . وهربوا . وكان صدقيا على رأس الهاربين . فلاحق بهم الكلدانيون . وأثروا بهم إلى ملكهم نبوخذ نصر . ففقأ هذا عين صدقيا ، وأرسله إلى بابل .

بعدئذ نهب نبوخذ نصر أورشليم ، ودك سورها ، ودمر الهيكل الذي بناه سليمان ، وأجلى شعبها إلى بابل . فقتل منهم من قتل ، واستعبد من لم يقتل . وهكذا انقرضت مملكة يهوذا (٥٨٦ ق. م) وراحت كلمة بابل هي العليا في أورشليم . وكان البابليون يسمونها : أورو - سالم . وأصبحت هذه البلاد كلها ، من أدناها إلى أقصاها ، مستعمرة بابلية ، تدفع الضرائب لبابل ، وتتكاثر معها . وانتشرت اللغة البابلية . وظلت هذه لغة البلاد الرسمية حتى الفتح الفارسي . وأما اللغة التي كانت دارجة بين السكان ، فقد كانت الكنعانية .

القدس في عهد الفرس

(٥٣٨ ق. م)

بعد أن تغلب كورش ملك الفرس على البابليين (٥٣٩ ق. م) ، سار في فتوحاته قدماً حتى احتل سوريا . ثم جاء إلى أورو - سالم ، فاحتلها (٥٣٨) . والقائد الذي احتلها باسم الفرس هو : غوبرياس .

تنفس اليهود الصعداء في عهد كورش . ذلك لأنه تزوج من يهودية (١) ، هي إستير أخت زربابيل بن شلاثيل بن يهوياكين بن يهوياقيم ملك اليهود الذي ذكرناه في موضع آخر من هذا الكتاب . وطلبت منه امرأته أن يأذن لقومها الذين نفاهم نبوخذ نصر إلى بابل بالعودة إلى أورو - سالم . فأذن لهم (٥٣٨ ق. م) . فعاد إليها فريق منهم . وآثر الآخرون البقاء حيث كانوا .

بعد كورش اعتلى عرش الفرس أرتخشستا (٥٢٢ ق. م) فأراد هذا أن يحول دون رغبات اليهود . ذلك لأن العرب والأمم المجاورة لهم في ذلك الحين كالحوريين والعمونيين اعترضوا على ذلك . وهددوا أرتخشستا بالعصيان . فأصدر أمره بوقف حركة البناء التي أقاموها في الهيكل . ولكن دارا ، خال كورش ، الذي خلف أرتخشستا في الملك ، أتاح لهم ذلك (٥١٩ ق. م) . فبنوا السور . وأتموا بناء الهيكل الثاني (٥١٥ ق. م) . وفي عهد أرتاكسر كس الأول (٤٦٥ ق. م) عين نحميا حاكماً على أورو - سالم (٤٤٥ ق. م) . وكان هذا من أنصار الفرس . ففتح الملك سلطة واسعة . وسمح له أن يبني ما تهدم من السور .

(١) (تاريخ مختصر الدول) لابن العربي ص ٨١ .

ظلت أورو - سالم تابعة للملك الفرس ؛ تدفع لهم الضرائب والعوائد ، وتسهل لهم سبل العبور إلى مصر حتى احتلها الفاتح المقدوني الكبير الإسكندر (٣٣٢ ق. م) (١) .

كان الفرس ، في عهد كورش ، متقشفين : يعيشون على الخبز والماء ، وعلى شيء من البقول . وكانوا جهلاء : يتزوج الأخ أخته ، والأب بنته ، والابن أمه . ولكنهم كانوا في الوقت نفسه أقوياء : لهم جيش منظم . وكان ملوكهم مطلقى الإرادة . وفي عهد دارا قيذا الملك بمجلسن مهمته إسداء المشورة ، وموظف لقبه (حامل التاج) ومهمته إيقاظ الملك في كل صباح .

كانت لهم في بادئ الأمر نقود مسكوكة من معدن الألكتروم . ولما توسعوا على عهد دارا ، وأصبحوا سادة مناجم الذهب في الهند شرعوا يضربون نقودهم من معدني الذهب والفضة . كانوا في بادئ الأمر أقوياء . غير أنهم عندما فتحوا الأمصار ، واختلطوا بالقبائل الغريبة عنهم ارتخت عزائمهم ، وتغيرت طبائعهم ، وجنحوا إلى حب الملامى ورغد العيش (٢) .

(١) (مختصر التواريخ القديمة) للقس بولس رحمانى ص ١٦٩ .

(٢) يحسن بك ، أيها القارىء الكريم ، أن تقرأ بعد هذا الفصل ، ما كتبناه عن غزو الفرس

للقس فى عهد كسرى الثانى (٦١٤ بعد الميلاد) .

القدس في عهد اليونان

(٣٣٢ ق. م)

احتل القائد المقدوني الكبير إسكندر^(١) يروشليم عام ٣٣٢ قبل الميلاد ، وكان رجال الفرس من حاميتها قد انسحبوا منها . فدخلها دون أن يسفك دمًا من أجلها . واستقبله سكانها بالرضا والارتياح . ذلك لأنهم كانوا قد سئحوا الفوضى من جراء اختلافاتهم الداخلية .

عندما زحف الإسكندر صوب المدينة كان معه أربعون طبلخانة^(٢) . ويقدر بعض المؤرخين هذه القوة بأربعين ألفاً . وكان ينوي تدميرها . إلا أن اليهود هرعوا لاستقباله في ظاهر المدينة ، يتقدمهم الشيوخ والكهنة ، لابسين حلالاً بيضاء ، وراحوا يتضرعون إليه ، طالبين العفو . وأراه الكاهن الأكبر سفر دانيال ، وقد جاء فيه أن أحد ملوك اليونان سيتغاب على الفرس ، وسيقوض عرش الأكاسرة . . . فسكت ولم يبطش بهم . لا ، بل أقر عاداتهم التي ورثوها عن آبائهم ، وأمرهم أن ينخرطوا في جيشه ، وأدفعهم من دفع

(١) إنه إسكندر الثالث بن قليب الثاني ملك مقدونيا وأومبيا . ولد عام ٣٥٦ ق. م . وتعلم على يد الفيلسوف اليوناني الشهير أرسطوطاليس . إنه (ذو القرنين) الذي ورد ذكره في القرآن الكريم : « ويسألك عن ذي القرنين ، قل سأولئكم منه ذكراً . إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً » . سورة الكهف الآية ٨٣ .

(٢) (بيت الطبل) ويشتمل على طبول متعددة معها أبواق وزمارات . وتكون معه في الأسفار والحروب .

الجزية ، وأتاح لهم أن يسكوا نقوداً . وكانت القدس على عهده تدعى : يروشاليم . ثم راحت تدعى : هيروسليما .

ولما مات الإسكندر (٣٢٣ ق. م) اقتسم قواده الملك : فأخذ (سلوقس) سورية ، وأسس فيها دولة السلوقيين . وأخذ (بطليموس) مصر وأسس فيها دولة البطالسة . وكانت هيروسليما من نصيب البطالسة .

حكم بطليموس اليهود رغم أنوفهم . وأرادوا مقاومته ، إلا أنهم لم يفلحوا . إذ ساق عليهم جيشه ، ففتح هيروسليما ، ودك قسماً من حصونها . وبطش بسكانها . فأرسل منهم مئة ألف أسير إلى مصر (٣٢٠ ق. م) .

واستخدم بطليموس يهودياً يدعى (يوسف بن طوبياس) مديراً للحال ورئيساً للجباة . فجمع هذا الضرائب بالقوة ، وذاق الناس على يده مرّ العيش .

انتقلت هيروسليما من حكم البطالسة إلى حكم السلوقيين عند ما احتلها أنطيوخس ابيفانس (١٦٨ ق. م) . وقد هدم هذا أسوارها ، ودك حصونها ، ونهب هيكلها فنصب فوقه التماثيل ، وقتل من اليهود ثمانين ألفاً في ثلاثة أيام ، وحظر عليهم الختان ، وأرغمهم على انتهاك حرمة السبت ، وأكل الخنزير . وكان دليبه في معظم فعاله منلاوس رئيس أحبار اليهود الذي خان قومه من أجل الوصول إلى منصبه . ولم يتمكن اليهود من مقاومته في بادئ الأمر ، إذ كانت حامية المدينة مؤلفة من عشرين ألف جندي سلوقي .

بعد وفاة أنطيوخس الرابع تولى الملك ولده أنطيوخس الخامس (١٦٤) . ولما كان هذا صغيراً ، تولاه لسياس الوصي على العرش (١٦٢) . وتآمر هذا مع سكان يافا على اليهود . فأغرق عدداً كبيراً منهم في البحر ، وثار اليهود عليه . فساق عليهم جيشاً لجباً ، وحاصر هيروسليما . ولكنه ارتد عنها بسبب الثورة التي نشبت في سوريا والتي انتهت بانتصار خصمه ديمتريوس الأول الملقب بـ (سوتير) .

أقام ديمتريوس على رأس الإدارة في هيروسايا : (بكيديس) . وقام
(الكيس) (١) رئاسة الأحبار . ووضع تحت تصرف الاثنين جيشاً كبيراً
ليحكم به البلاد . وقامت بين الفريقين حروب ، مالت فيها دماء غزيرة .

وخلف بكيديس في الإدارة : (نكانور) . وقامت على عهد هذا
أيضاً ، حرب جديدة بين اليونانيين والمكابيين . وقتل نكانور . فأرسل ديمتريوس
إلى هيروسايا الوالى السابق بكيديس ورئيس الأحبار الكيس . فجاءا على
رأس جيش كبير . وتجددت الحروب . وقتل يهوذا المكابي (١٦٠ ق م) .
وألقى القبض على عدد من أبناء الزعماء وأرسلوا إلى رومة . فهدأت الثورة .

وقام بعدئذ خلاف شديد بين الحكام اليونانيين : ديمتريوس ومناقسه
الإسكندر بن أنطيوخس أبيفانس . فاستغل المكابيون هذا الخلاف والتنافس ،
وراحوا يبحثون عن الوسائل التى تضمن لهم النصر . أما الإسكندر فقد اعترف
بيوناثان الذى قاد المكابيين بعد مقتل أخيه يهوذا ، رئيساً للأحبار . وأما ديمتريوس
فقد وعد سكان هيروسايا بأن يعفيهم من الجزية ، ومن بعض الضرائب والمكوس .
كما وعدهم بأن تكون مدينتهم مقدسة وحرّة ، وأن يطلق سراح المعتقلين ، وأن
يعفو عن المجرمين .

ولئن كانت كفة الإسكندر هى الراجحة ؛ إذ انتصر على خصمه
ديمتريوس (١٥٠ ق م) ، إلا أن المكابيين كانوا فى الحقيقة هم الناجحون .
إذ أنهم استغلوا ذلك التنافس ، فاستقلوا . ولكن استقلالهم لم يدم طويلاً . إذ
اختلفوا فيما بينهم ، وقامت حروب أهلية ، جعلت كل واحد من الأخوين
(هركانس وأرسطوبولس) يستنجد بدولة من الدول المجاورة لهم . الأمر الذى فصلناه

(١) يهودى من بني هرون الذين لا يستحقون الرئاسة . كان اسمه (يواقيم) فاستبد له بالكيس
تسبهاً باليوزان . وهو الذى حرض الملك ضد المكابيين . وكان السبب فيما جرى بعدئذ من حروب .

فى موضع آخر من هذا الكتاب . فاهتبل بومبى هذه الفرصة وجاء إلى هيروسليا فاحتلها (٦٣ ق . م) .

قبل أن نختم هذا الفصل نرى لزماً علينا أن نقول كلمة عن الطابع الذى تركه احتلال اليونان فى هذه البلاد :

(أ) انتشر العنصر اليونانى فى البلاد بكثرة ، وامتزج اليونانيون بسكان البلاد الأصليين ، وناسبوهم .

(ب) انتشرت اللغة اليونانية ، حتى أصبحت لغة البلاد الرسمية ، ولغة العلم والمدارس . وأما اللغة التى كانت يومئذ دارجة بين الناس فهى الآرامية .

(ج) اقتبس سكان البلاد الأصليون الصناعات اليونانية ، ولا سيما صناعة الفسيفساء .

(د) انتشرت الحضارة اليونانية . وقد أسس اليونان المدارس . وعن هذه الطريقة نشروا آدابهم وتقاليدهم ومعتقداتهم الدينية .

(هـ) انتشرت النقود اليونانية (١) . وكانت على عهد الإسكندر بديعة السك والنقش .

(و) انتشرت التجارة اليونانية . واقتبس سكان البلاد عن اليونانيين كثيراً من معاملات الصرافة .

القدس في عهد الرومان

(٦٣ ق. م)

قلنا في آخر الفصل الذي سبق إن المكابيين الذين سيطروا على مقدرات هيروسليما زمنًا عادوا فتضعضوا . وإن بعضهم راح يدس الدسائس للبعض الآخر . وإن أرسطوبولس المكابي أخذ التاج عنوة (٧٠ ق. م) من أخيه هركانس الثاني . وأنه قامت بين الأخوين حرب أهلية كان من نتائجها أن تدخلت روما في الأمر . فجاء بومبي ، واحتل هيروسليما (٦٣ ق. م) .

حاصر بومبي هيروساليا ، قبل فتحها ، ثلاثة شهور .

قال يوسيفوس إنه كان هناك ، بين حارة صهيون ومنطقة الهيكل ، جسر هدمه بومبي . وظل يضرب المدينة بالمنجنقات حتى أحدث ثقباً في أسوارها . وهكذا تمكن من احتلالها واستباح حي الهيكل . وقتل من السكان خلقاً كثيراً . كانت تسمى عند الفتح هيروسليما . ثم راحوا يسمونها هيروساليا .

أقام بومبي حاكماً على المدينة اسمه (أسكورس) . استقبله اليهود بادي ذي بدء بالترحاب ، إذ أنقذهم من القوضى . ولكنهم عادوا ، فانقلبوا عليه . فألقى معهم . وهدم السور . وفرض عليهم أن يقدموا في كل يوم ذبيحة أمام الهيكل ، تكريماً لقيصر ولروما . ففعل اليهود ذلك مكرهين . ونكل بهم الوالي الروماني شر تنكيل .

وعلى عهد يوليوس قيصر (٤٩ ق. م) تنفس اليهود الصعداء . إذ ولي عليهم (أنتيباتر) الآدوي (٤٦ ق. م) ، وأقام من تحته هركانوس الحشموني حاكماً عليهم . ولما مات أنتيباتر تسلم زمام الإدارة ابنه فصايل ، وراح بعد

ذلك الآدوميون من ناحية يقودهم فصايل ، والحشمونيون من الناحية الأخرى يقودهم هركانس ، يقتتلون في شوارع المدينة . وكان النصر محالاً بينهم .
وتمكن هيرودس بعد قليل (٣٧ ق م) من إقناع روما بأنه مخلص لها . فنصبته ملكاً على اليهود . إنه آدومي الأصل . اعتنق الديانة اليهودية ثم خرج على المكابيين انتقاماً لأبيه الذي قتله هؤلاء . وأمه أنطونيوس بالحندي . فقتل على المكابيين . وقتل آخر ملوكهم (أنتيكانوس بن أرسطوبولس الثاني) . وراح يدير هيروساليا باسم روما .

إنه رجل حرب وكفاح . وهو ظالم . يستشيع كل شيء في سبيل الوصول إلى غاياته ؛ حتى إنه قتل امرأته وثلاثة من أولاده (١) .
ورغم أنه رمى الهيكل (١٨ ق م) إلا أن اليهود كرهوه . إذ أنه استأصل شأفة المكابيين وكانوا يعتبرونه أجنبياً . حاول أن يوفق بين اليهود والرومان . ولما فشل في مهمته شايع الرومان ضد قومه . وساعدهم على توطيد أقدامهم في البلاد . وكان يضحك قومه اليهود تارة ، وطوراً يبكيهم . ولقد أصاب المدينة على عهده قحط شديد . فجاج الناس . وحاول تخفيف وطأة المجاعة بالحبوب وزعها على السكان ، وبالأموال أنفقها على المشروعات العمرانية قاصداً تشغيل العمال . إنه هو الذي أجرى الماء في القناة الكائنة بين برك سليمان وهيروساليا (٣٠ ق م) . وهو الذي بنى القلعة الكائنة بباب الخليل . وكان له على مقربة منها قصر كبير . وقد شاد الحصن المعروف بـ (أنطونيا) . كما شاد عدداً آخر من الحصون والأبراج والهيكل والتمائيل . وسكت على عهده نقود . وفي آخر سنة من سني حكمه ولد السيد المسيح في بيت لحم . وكان قد أمر بقتل كل طفل يولد في بيت لحم . ولهذا هربت به أمه إلى مصر ، خشية أن يبطش به ذلك الملك العنيد الجبار . وفي السنة التي تلتها مات هيرودس بعد

أن عاش في دست الحكم أربعين عاماً .

ولما مات هيرودس (٤ ق م) عهد الرومان بالحكم لولده (أرشيلالوس) .
وعجز هذا عن إدارة البلاد فقامت فيها قلاقل وثورات . وطنى كثيرون من
رؤساء الأحزاب ، فنادوا بأنفسهم ملوكاً . واستنجد الولى بحاكم سوريا فاروس
وبالحارث ملك العرب . فأنجده كل منهما بعشرين ألف فارس . فأخذت
الثورة ، وأخذ الرومان من اليهود ألف أسير ، فقتلهم ؛ وذاق اليهود الذل مرة
أخرى . فطلبوا من روما جعل بلادهم إقليماً رومانياً . وكان لهم ما أرادوا . إذ
جاء الرومان واحتلوا البلاد من جديد . ولكنهم في هذه المرة اتخذوا (قيسارية)
عاصمة بدلاً من هيرساليا . وقد تم ذلك على عهد أغسطس قيصر .

راح الولاة الرومانيون بعدئذ يتعاقبون على كراسى الحكم . وإنا لذاكرون
منهم : كوبونئوس (٦ - ٩ م) ماريوس أمببفئوس (٩ - ١٢ م) إينوس
روفوس (١٢ - ١٤ م) فالريوس غراتوس (١٤ - ٢٦ م) بيلاتوس بونتيوس
(٢٦ - ٣٦ م) وعلى عهده صلب السيد المسيح . وكان على عرش روما يومئذ
الملك طيباريوس قلودئوس .

كانت العلاقات متوترة بين الرومان واليهود إلى درجة أن هؤلاء استقبلوا
الولى الرومانى بيلاتوس بوجوم . ووقعت في هيرساليا ، بعد ذلك ، حوادث
كثيرة . منها أن الكهنة رفضوا الدعوة التى وجهها إليهم بيلاتوس . ووصف
هذا اليهود بقوله^(١) : إنهم يضحون بكل غال ورخيص في سبيل مصلحتهم .
ووصف هيرساليا بأنها « عش الدسائس والفتن » . . .

كانت هذه يومئذ ذات شوارع ضيقة ، وطرق مرصوفة رصفاً سيئاً .
موارد المياه والمجارى فيها رديئة . والأمراض منتشرة انتشاراً فظيماً . وكان الهيكل

الذى عمره هيرودس قائماً . وحول هذا الهيكل سور . وكان الرومان يحرمون على جنسهم أن يتخطوا السور . وكانت الحامية الرومانية فى المدينة ضعيفة بحيث كان بيلاتوس يضطر لاستنجد زميله فى سوريا كلما حدثت فتنة .

ولقد أنشأ بيلاتوس طريقين ، طريقاً تربط هيروساليا بالشمال والساحل . وأخرى تربطها بأريحا وغور الأردن . وكانت أريحا يومئذ ذات أهمية تجارية . وكان أعظم عمل قام به أنه بنى قناة الماء الممتدة من برك سليمان إلى المدينة ، وأجرى فيها الماء . وكان سكانها الذين بلغ عددهم يومئذ خمسين ألفاً يقاسون ، قبل ذلك ، مر العيش . ولم يكن لهم فى المدينة سوى بضع آبار . ورفض اليهود . رغم ما كانوا يقاسونه من عذاب وعطش ، أن ينفقوا فلساً واحداً من خزائن الهيكل على مشروع الماء . وثاروا . إلا أن بيلاتوس أخذ ثورتهم ، ونهب خزائنهم ، وعمر القناة رغم أنوفهم .

تولى إدارة المدينة بعد ذلك الوالى الرومانى مرشلوس (٣٧ م) وهيرودس أغريبا (٣٧ - ٤٤) حفيد هيرودس الكبير . وعلى عهده أنشئ حتى (بيزيتا) المكون من الأحياء المعروفة فى يومنا هذا بباب حطة والسعدية وباب العمود . وشرع فى بناء السور الثالث . وقعت بينه وبين الحارث ملك العرب حرب بسبب امرأته (بنت الحارث) غلب فيها على أمره . ففضبت روما عليه ، ونفته . وفى عام ٤٤ بعد الميلاد حكم المدينة وال رومانى اسمه كسبيوس فادوس . وعلى عهده حدثت قلاقل فى البلاد . فاضطرب جبل الأمن ، وانتشرت الفوضى ، وعم الجوع ، وساد القلق . وحدثت وقائع بين اليهود وبين خصومهم العرب والآدوميين . فانتصر الوالى للعرب عند ما أيقن أنهم على حق . وأراح البلاد من المشاغبين .

ولكن يظهر أن اليهود رفعوا شكواهم إلى روما . فأقالته ، أو استقال . فخلفه في الإدارة طيباريوس إسكندر (٤٦ م) . وهو من اليهود المرتدين وكان أول عمل قام به أن قتل اثنين من زعماء اليهود ، لأنهما حرضا قومهما على الثورة .

وفي زمن خلفه فنتديوس قومانوس (٤٨ م) ثارت في هيروساليا فتنة بسبب كلمات فاه بها أحد الجنود الرومانيين ، فعدها اليهود احتقاراً . حاول قومانوس إقناع اليهود أنه لم يكن المسبب لذلك ، وتصحهم بالإخلاق للسكينة . ولما لم ينصاعوا لأمره أمر الجنود أن يكونوا على أهبة الاستعداد ، فظن اليهود أن الجنود سيهاجمونهم . فهربوا . وداس بعضهم على بعض في شوارع المدينة الضيقة ، فمات منهم كثيرون .

بعد قومانوس تولى الإدارة قلوديوس فيلكس . ووجد هذا الفوضى ضاربة أطنابها في هيروساليا ، وفيما حولها من البلدان . وكان فيها عدد غير قليل من الزعماء الطماعين : دينهم النهب والسلب وقطع الطرق . فساق عليهم جنده ، وشتمهم ، وقتل منهم زهاء أربعمئة شخص . وعلى عهده قامت خصومات بين الشعب اليهودي وبين كبار حاخاميه . ووصل هؤلاء الحاخامون إلى درجة من الطمع والنفوذ نهوا فيها البيادر ، وجعوا الأعيان لأنفسهم ، حتى أنهم لم يبالوا بالفلاحين والفقراء : سواء أمانوا جوعاً أم بقوا على قيد الحياة .

بعد فيلكس تولى الإدارة فستوس (٦٠ م) . وكان هذا حازماً . فتمكن من السيطرة على اليهود والناشرين . ومن التدابير التي اتخذها أنه نصح نيرون الملك ، أن يعتقل رئيس الكهنة وخازن الهيكل وعدداً من الكهنة أنفسهم . فعمل الملك بنصحه . وأرسلهم إلى روما . وهناك احتفظ بهم رهينة . فهدأت الفتن . ولم يبق اليهود بأى نوع من أنواع الشعب طيلة وجود فستوس على رأس الحكم . ولكن حكمه لم يدم طويلاً . إذ مات بعد عام (٦١ م) .

ولقد ثارت الفتن من جديد على عهد خلفه البينوس . وكان من سوء حظه
 — على حد قول المؤرخ بالمر — أنه صادق الحاخام الأكبر حنان . فاختطف
 اليهود الفوضويون ابنه (أى ابن الحاخام حنان) العازر . فوافق البينوس على
 إطلاق سراح عشرة من الإرهابيين المعتقلين لديه كفدية لخلاصه . وتكررت
 حوادث الخطف وإطلاق سراح المعتقلين . وكان أن تم يومئذ (٦٤ م) ترميم
 الهيكل . فوجد ثمانية عشر ألفاً من العمال أنفسهم من غير عمل . فانضم هؤلاء
 إلى المساجين الذين أطلق سراحهم . فامتلات شوارع المدينة بالعمال العاطلين
 والعصابات المسلحة وأتباع الحاخامين المعزولين . واستخدم البينوس العدد
 الكبير من هؤلاء العمال . العاطلين في رصف شوارع المدينة بالحجارة ، على أمل
 أن يرضيهم ويلهيهم ، إلا أن الفوضى ظلت منتشرة . عندئذ غضب البينوس .
 فأنزل في اليهود جميع أنواع العقاب . فساد القلق وانتشر الخوف وعمت البلوى .
 وكانت النتيجة أن وصف المؤرخ اليهودي المشهور يوسيفوس عمل البينوس
 بقوله « إنه ليس ثمة نوع من أنواع الذنوب والآثام إلا كان له دخل فيه . . . »
 بعد البينوس تولى الإدارة جيسيوس فلورس (٦٥ م) . وعلى عهد هذا
 أيضاً حدثت في هيرساليا حوادث شغب كثيرة . واضطرابات دامية ، وسادت
 الفوضى معظم أنحاء البلاد . وبدأت هذه في قيسارية بين اليهود والسوريين .
 فاقتتل الفريقان من أجل قطعة من الأرض يملكها أحد السوريين وأراد اليهود
 أن يملكوها لأنها واقعة أمام كنيسهم . وطلبوا من فلورس أن يملكها
 باسمهم ، واعدية برشوة قدرها ثمانية ثالت . إلا أنه رفض التدخل قائلاً : الناس
 أحرار فيما يملكون . فاحتكم الفريقان إلى السلاح . وغلب اليهود . فانسحبوا
 من المدينة ، وراحوا يستعدون للثورة . ولكن فلورس تمكن من إخماد ثورتهم .
 فبطش بهم . وقتل منهم — على حد قول المطران دبس — ثلاثة آلاف وستماية
 رجل .

وحاول اليهود أن يلجأوا إلى سلاح الجحالم . فأرسلوا إلى الوالى فيرونيكه أخت أغريبا . وكانت هذه من الجحالم على جانب عظيم . ولكنها عبتاً حاولت أن تقنع فلورس كى يقف أعمال النهب والسلب . ذلك لأنه اختبر من حيل اليهود ومكرهم ما لم يختبره الآخرون . فرفض طلبها . وظلمت أعمال النهب والسلب والقتل سائرة في قيسارية . فقتل من اليهود عشرون ألفاً في يوم واحد . وقامت مذابح مثلها في المدن الأخرى .

ولم تنج هيروساليا من الثورات والاضطرابات بعد ذلك بسبب كره اليهود للرومان . وكان الرومان تارة ينزلون باليهود أشد العقاب ، وطوراً يمنحون إلى الرأفة . ولما رأوا أن هذه السياسة جعلت اليهود يطغون ، إذ ساد الشر ، وعم الفسق ، وفقد الأمن ؛ قرروا أن يقضوا عليهم قضاء تاماً . فأصدر نيرون أمره إلى قائده فلافيوس فسباسيان . وجاء هذا (٦٧ م) على رأس جيش مؤلف من ثلاثة فيالق (٦٠,٠٠٠ مقاتل) . ولكنه اضطر للرجوع قبل أن يحتل هيروساليا . إذ كان نيرون قد قضى نحبه ، وكان عليه أن يرجع إلى روما ليتولى العرش من بعده . فتولى القيادة ابنه تيطس .

حاصر تيطس المدينة (٧٠ م) وكان الرومان يومئذ يسمونها (سولييموس) وكانت محاطة بالأسوار . وكان جيشه مؤلفاً من أربعة فيالق . منها ثلاثون ألفاً من الجنود النظاميين . وكان في عداد هذه الحملة فرقة من متطوعي الأقباط (عرب) ؛ فقد انحنوا على المدينة وقتل من سكانها خلقاً كثيراً . وحرق الجنود الهيكل . ودكت الأسوار . وهدمت المنازل . وامتألت الشوارع ببحث القتلى . وعانى الشيوخ والنساء والأطفال ما عانوا من جراء الخوف والجوع . وأكل الناس الكلاب والجرذان والحشرات . وذبح بعضهم أبناءهم وأكلوا لحومهم . وقدر المؤلف اليهودى يوسيفوس الذى شهد الحصار عدد القتلى بمليون نسمة . وقيل إنهم ستمئة ألف . وعند ما سقطت المدينة في يد تيطس أسر من أهلها من أسر .

وبيع من بيع في سوق الرقيق .

وقصارى القول : أصاب اليهود على يد تيطس ما أصابهم من ذل وهوان لم يعرف التاريخ لها مثيلاً . وحقت عليهم نبوءة أرميا الذى قال : (الذين إلى الموت فإلى الموت . والذين للسيف فإلى السيف . والذين للجوع فإلى الجوع . والذين للسبي فإلى السبي .)

ولقد هجرت سوليموس بعد احتلالها من لدن تيطس . فلم يبق فيها سوى حاميتها الرومانية . وبعد قليل (٨٠ م) رجع إليها المسيحيون الذين كانوا قد نرحوا عنها ، وأما اليهود فقد حظر عليهم الرجوع إليها . وعاد اليهود إلى أعمال الشغب في عهد الإمبراطور تراجان (١٠٦ م) إذ تمكن يومئذ عدد كبير منهم من الرجوع إلى سوليموس بسبب ضعف الحامية فيها ، وثاروا . ولكن الحاكم الرومانى (لوقيوس كوثيوس) أحمد ثورتهم .

ولما تولى أدريانوس عرش الرومان (١١٧ - ١٣٨ م) اعترم أن يقضى على الشعب اليهودى الذى كان لا يهدأ له بال دون أن يقوم بنوع من أنواع الشغب . فاعترم قلب المدينة إلى مستعمرة رومانية . وأقام عليها أخا زوجته (أكيل) . فحظر هذا على اليهود الاختتان ، وقراءة التوراة ، واحترام السبت . فثار اليهود ثورتهم المشهورة بقيادة (بارقوخيا) . وقامت في سوليا (١٣٥ م) اضطرابات دموية لم يسبق لها مثيل . واستبدلت روما حكامها مرتين في عام واحد . فجاء أولاً (تورنوس روفوس) ثم جاء (يوليوس سيفيروس) فاحتل هذا المدينة وقهر الثوار . وذبح بارقوخيا . وقتل من اليهود يومئذ ٥٨٠,٠٠٠ نسمة بحمد السيف . هذا غير الذين ماتوا جوعاً أو مرضاً أو حرقاً بالنار . ومن لم يمت منهم طرد من المدينة . وتشتت اليهود بعدئذ تحت كل كوكب . ولكى ينسى اليهود سوليا أمر أدريانوس بتدميرها . وأنشأ مكانها مدينة جديدة أسماها (إيليا كابيتولينا) . وكانت هذه يومئذ قرية صغيرة تابعة لقيسارية من جميع النواحي

الإدارية والسياسية والاقتصادية والدينية .

واضطهد أدريانوس المسيحيين أيضاً ، فأمر (١٣٥ م) بإجلائهم عن الكنيسة^(١) . كما أمر بردم المكان بالتراب والحجارة وبني فوق الحلجلة والقبر هيكلين وثنيين . ونصب فوقهما تمثالاً المشتري والزهرة .

وبني أدريانوس سوقاً في المكان المعروف الآن بباب العمود . وأقام هناك أروقة وأعمدة كثيرة قيل إنها كانت تمتد إلى جبل صهيون . ومن هنا جاء الاسم المعروف : باب العمود .

كانت اللغات المستعملة في إيليا ، على عهد الرومان ، الآرامية ، والعبرية ، واليونانية ، واللاتينية ، أما اللغة العبرية فقد كانت لغة اليهود ، واليونانية لغة الطوائف الأخرى . وأما اللغة اللاتينية فكانت لغة الحكومة الرسمية ، وأما اللغة الآرامية فقد كانت لغة التخاطب بوجه عام . ولقد فرض الرومان على البلاد الجزية وأنواعاً أخرى من الضرائب التي عادت على روما بالغنى وعلى البلاد بالفقر^(٢) .

ولقد ترك الرومان في إيليا وغيرها من البلدان كثيراً من آثار العمران كالمعابد والحصون والطرق والصهاريج والمجاري والسدود والأشجار والجسور . غير أن معظم هذه الآثار أصابه البلى ، بسبب الحروب والثورات . وقضى على البقية الباقية منها عند ما احتل الفرس إيليا (٦١٤ م) . وكان ذلك قبيل الفتح الإسلامي .

(١) (تاريخ كنيسة اورشليم الأثرية كسبة) لشحاده غورى ونقولا غورى . ص ٧

(٢) (عطف الشام) للمرحوم محمد كرد علي . ج ٥ ص ٤٧ .

القدس البيزنطية

(٣٣٠ م)

عندما تولى قسطنطين عرش الأباطرة (٣١٣ م) تنقست النصرانية الصعداء وكانت قبل ذلك مضطهدة . ولم يقف هذا عند حد السماح لها بالانتشار في مملكته ، بل تنصر هو بنفسه . وتغلب على خصمه ليسينيوس ، فأصبح القائد غير المنازع للمملكة الرومانية في الشرق والغرب (١) وأقام على أنقاض بيزانس (٢) مدينة جديدة أسماها القسطنطينية (٣٣٠ م) . وأصبحت إيليا مدينة بيزنطية تابعة للقسطنطينية .

ولم يمض زمن طويل حتى زارت أمه الملكة هيلانة إيليا (٤٢٦ م) وبنيت فيها كنيسة القيامة (٣٣٥ م) وخربت هيلانة البناء الذي كان على الصخرة ، وجعلها مطرحاً لقيامات البلد عناداً لليهود (٣) . وفرض قسطنطين على اليهود أن يتنصروا . فتنصر فريق منهم ؛ ومن لم يتنصر قتل ؛ أو غادر البلاد (٤) .

ولما اعتلى جوليان الجاحد العرش (٣٦٠ م) تنفس اليهود الصعداء ، وكانوا قبل ذلك مضطهدين . فألغى هذا جميع القوانين التي صدرت ضدهم وراح اليهود يتسلون إلى المدينة من كل صوب . وأمر جوليان بإعادة بناء الهيكل . وعهد بذلك إلى أحد رجاله البينوس . ولكنهم ما كادوا يحفرون الأساس حتى

(١) انشقت هذه المملكة إلى قسطنطينية ، المملكة الغربية وعاصمتها روما . والمملكة الشرقية وعاصمتها بيزانس .

(٢) إستانبول .

(٣) (صبح الأعشى) للقلقشندي . ج ٤ ص ١٠١ .

(٤) (تاريخ القدس الشريف) لمركيس . ص ١٥٦ .

اندلعت النيران من تحت الأرض . وسمع انفجار شديد فهرب العمال . ووقف العمل . فذهب الناس في تفسير هذه الظاهرة مذاهب شتى . فمنهم من اعتبرها دليلاً على غضب السماء . ومنهم من قال إن المسيحيين أعدوا النار ليحولوا دون الهيكل . ومنهم من فسر ذلك باحتراق الغاز الدفين وهو سام . ومات بعدئذ جوليان . فخلفه ثيودوسيوس . ولما توفى هذا (٣٩٥ م) اقتسم ولداه المملكة ، وجعلها مملكتين . فراح أركاديوس يدير المملكة الشرقية . وهونوريوس الغربية . وفي (٤٥١ م) انقسمت الكنيسة أيضاً ، فأصبح هناك كنيسة شرقية وغربية ، وكانت إيليا يومئذ من أتباع الثانية .

وفي (٥١٣ م) أقام الملك أنسطاسيوس على إيليا حاكماً يدعى أولمبيوس . وعلى عهده ثار الرهبان . فأقاله الملك ، وولى مكانه أنسطاسيوس .

وفي (٥٢٧ م) توفى الملك يوستينوس ، وخلفه يوستينيانوس (جوستانيان) العظيم . وعلى عهده ثار اليهود والسمرية . فأطفأ ثورتهم . وشئت شملهم . وأنشأ هذا عدداً من الكنائس والأديار في إيليا وفي ما حولها من الجبال والأودية .

وبنى ، في موضع المسجد الأقصى الحالي ، كنيسة باسم العذراء . وقرر المجلس الكنسي الخامس الذي التأم على عهده (٥٣ م) جعل إيليا مقراً للبطريركية .

ولكن لم يمض زمن كثير حتى دب الخلاف بين رجال الدين المسيحي فراحوا يتنازعون في مجادلات دينية . وراحت البلاد تتدهور إلى الوراء .

وتولى العرش بعد ذلك أباطرة كثيرون . إلا أن معظمهم كانوا من الضعف بدرجة أنهم لم يستطيعوا درء الشر عن بلادهم ، فاستغل الفرس الفرصة . وغزوا البلاد . وفي عهد هرقل (٦١٠ - ٦١٤ م) كان الضعف قد دب في مملكته

إلى درجة أنه لم يستطع الوقوف في وجه كسرى^(١) الذي أرسل عليهم جيشه بقيادة (مرزبة خزروية) فاحتل هذا إيلياء (٦١٤ م) وذبح من سكانها تسعين ألف مسيحي . وهدم الفرس كنيسة القيامة ، كما هدموا معظم الكنائس والأديار . وأخذوا البطرك زخريا إلى بلادهم أسيراً . ويعتقد بعض المؤرخين أن الفرس قاموا بهذه الأعمال بتحريض من اليهود، وأن هؤلاء قتلوا من المسيحيين أكثر مما قتل الفرس .

وأصاب الناس يومئذ جوع شديد . حتى قيل إنهم أكلوا الجيف وجلود البهائم .

ولكن هرقل عاد ، فجمع قواه . وانتصر على الفرس (٦٢٧ م) . ثم اصططح الفريقان . فأعيد الأسرى إلى بلادهم . كما أعيدت الغنائم التي نهبها الفرس . ودخل هرقل إيلياء (١٤ أيلول ٦٢٩ م) حاملاً على كتفه خشبة الصليب التي استردها من الفرس . وانتقم من اليهود ، فراح يقتلهم بالآلاف . ولكن الضعف كان قد دب في مملكته بدرجة لم يستطع معها مقاومة المسلمين الذين جاءوا بعد قليل ، فأخذوا البلاد منه .

هناك في مادبا من أعمال شرق الأردن قطعة صغيرة من الأرض مرصوفة بالفسيفساء ، تمثل خارطة فلسطين في ذلك العهد ، وقد عثر المنقبون على هذه القطعة بين أطلال كنيسة قديمة ، ويرى الناظر إليها موضع إيلياء محاطة بسور ، يخترقها من الشمال إلى الجنوب شارع تقوم الأعمدة على طرفيه . وينتهي هذا الشارع عند الباب المعروف في يومنا هذا بباب العمود .

(١) جاء في كتاب (أبو بكر الصديق) للأستاذ محمد حسين هيكل ص ٢٠٨ أن المقصود من الآية الكريمة التي أنزلها الله على نبيه : « ألم . غلبت الروم في أدنى الأرض . . . » هو هذه المعركة .